القضايا الفلسفية في الجغرافيا

أشيل سي. فارزي
قسم الفلسفة، جامعة كولومبيا - نيويورك، الولايات المتحدة الأمريكية

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة

عالم الجغرافيا متنوع بشكل غير عادي . فهو يشمل الجبال والأنهار، وكذلك الولايات والمدن ومراكز الاقتراع . ويشمل قطعًا خرسانية من الأراضي والمسطحات المائية ، بالإضافة إلى حقول مجردة لاستخدام الأراضي وهطول الأمطار . كما يشمل المعالم الطبوغرافية الطبيعية مثل الخلجان والوديان والبرزخ والنتوءات الصخرية ، إلى جانب القطع الأثرية التي صنعها الإنسان مثل السدود والجسور والطرق والسكك الحديدية والممرات الجبلية . ويشمل مناطق محددة طبيعيًا مثل أستراليا أو جزيرة مالطا ، بالإضافة إلى المناطق التي تنحرف حدودها عن أي انقطاعات مادية ، مثل يوتا وساسكاتشوان ؛ والأراضي المحددة بوضوح مثل ولايات الاتحاد ، بالإضافة إلى الأراضي غير المحددة بشكل واضح مثل الصحاري والهضاب .

ويشمل عالم الجغرافيا كيانات موحدة ومتصلة ، بالإضافة إلى كيانات متفرقة، مثل بولينيزيا أو الولايات المتحدة الأمريكية . إنها تشمل الكيانات المادية وغير المادية ، مثل الأنفاق والوديان ؛ والأشياء الممتدة وغير الممتدة ، مثل القطبين أو خط الاستوا ء. وتتعلق الجغرافيا بكل هذه الأشياء ، وأنواع أخرى كثيرة منها أيضًا ، وأجزاءً منها ومجموعاتها ، والخرائط التي يرسمها الجغرافيون هي خرائط لهذا العالم الغني . قد يتصور المرء أنه بالنظر إلى هذا التنوع الوجودي الظاهر، تُشكل الجغرافيا مجالًا مثاليًا للبحث الفلسفي - أرضًا خصبة للبحث . لأي فيلسوفة ترغب في إثراء رصيدها من الأمثلة ودراسات الحالة .

في الواقع ، ليس عالم الجغرافيا نابضًا بالحياة فحسب ، بل إنها متورطة أيضًا في تمييزات فلسفية دقيقة ، مثل التمييز بين الكيان وموقعه المكاني (إيطاليا ليست مجرد إقليم على شكل حذاء) أو التعارض بين الهوية والتوافق المكاني والزماني (مدينة هامبورغ و ولاية هامبورغ شيئان في مكان واحد). وكما يقول البعض ، في الجغرافيا ، لا يُستوعب " لماذا" و"المكان" . ومع ذلك ، فهما متشابكان بعمق ، وهذا يثير مجموعة من الألغاز - كما هو الحال عندما نسأل عما إذا كانت الدولة - الأمة قادرة على النجاة من التغييرات الجذرية في أراضيها ، أو ما إذا كانت قادرة على البقاء بدون إقليم ، أو ما إذا كانت قادرة على التحرك ، أو الانقسام ، أو الاندماج مع دول أخرى ، أو تغيير أجزاء .

يُعدّ عالم الجغرافيا مثيرًا للاهتمام من الناحية الفلسفية ، تحديدًا لأن العديد من الكيانات الجغرافية موجودة في الواقع المكاني (في العالم "الموجود") ، بينما يعتمد وجودها أيضًا على ممارساتنا الاجتماعية والمعرفية . ولكن ، من المثير للدهشة ، أن الفلاسفة لم يُكرّسوا الكثير من العمل لهذه المسائل . كان هناك بعض الاهتمام بالقضايا المتعلقة بالجغرافيا في بعض مجالات الفلسفة الاجتماعية والسياسية (والمجالات ذات الصلة مثل الأخلاقيات البيئية) ، **وهناك اليوم جمعية للفلسفة والجغرافيا تهدف تحديدًا إلى جمع المناقشات بين هذين التخصصين بطريقة أكثر منهجية** . ومع ذلك، فقد كانت هذه التطورات مدفوعة بشكل خاص بالاهتمامات العملية ، على سبيل المثال ، باستكشاف الجغرافيات الثقافية ، والبناء الاجتماعي للطبيعة ، وتصوير المظاهر الطبيعية ، وما شابه ذلك.

ما تزال الأدوات النظرية العامة التي يصف بها الجغرافيون العالم ، بالإضافة إلى أسسها الميتافيزيقية ، غير مستكشفة تقريبًا ، وتحتاج إلى توضيح كبير. بالطبع ، يمكن للمرء أن ينكر أن الجغرافيا تتعامل مع عالم خاص بها على الإطلاق . فالجبال - كما يمكن للمرء - ليست سوى تلال شاسعة من التربة وبحيرات ذات كميات هائلة من المياه ، ولا ينبغي قبول أي كيانات جيوسياسية أو إدارية فوق الأراضي التي تشغلها ، والأشخاص الذين تتعامل معهم ، والأشياء التي يتعامل معها هؤلاء الأشخاص في ممارساتهم اليومية الاعتيادية . أو يمكن للمرء أن يجادل بأنه إذا وُجدت مثل هذه الكيانات الجيوسياسية ، فإنها توجد ككيانات تابعة - ككيانات تابعة أو معتمدة وجوديًا على أراضيها وعلى الأشخاص والأشياء العادية التي تسكنها ، وربما على البيئات السلوكية التي يتفاعل فيها الأشخاص والأشياء العادية .

وينطبق الأمر نفسه على جميع أنواع الكيانات الأخرى التي يبدو أن الجغرافيا ملتزمة بها ، بما في ذلك الحقول النباتية ، والمناطق الصناعية ، والكثافات السكانية ، أو الأشياء والحقول الملونة التي تُصوَّر على سبيل المثال في خرائط الطقس . هذه خيارات واضحة يمكن... يتشارك فيلسوف الجغرافيا مع أي فيلسوف آخر منخرط في البحث الميتافيزيقي للبنى المعقدة للعالم الاجتماعي . ولكن حتى لو افترضنا أن الجغرافيا تفتقر إلى وجود أساسي خاص بها ، فإن المهمة تبقى تقديم توصيف دقيق للتحليل الاختزالي ذي الصلة ، أو لنوع التبعية المتضمنة في العالم الجغرافي . يمكن ، بل وينبغي ، أن يُقال الكثير عن التعقيد الميتافيزيقي المذهل للصورة العامة .

يهدف هذا العدد من مجلة Topoi إلى السير في هذا الاتجاه . تتناول بعض الأوراق البحثية صراحةً مسائل التصنيف الوجودي ، في محاولة لتوفير فهم أفضل للطريقة التي يعبر بها الجغرافيون عن الواقع الذي يتعاملون معه ، بينما تتناول الأوراق البحثية الأخرى أسئلةً ناشئة تحديدًا عن حقيقة أن الجغرافيا ، قبل كل شيء ، **هي نظرية للبنى الممتدة مكانيًا** . وهكذا ، يتناول كتاب باري سميث "أشياء فيات" وكتاب آمي ثومسون "الأشياء الجغرافية وعلم الجغرافيا" السؤال الأول من خلال تناول الطرق التي يُمكن من خلالها القول بحق إن الأشياء والأنواع الجغرافية تعتمد على العقل ، وما يترتب على هذه التبعيات العقلية من عواقب على علم الوجود وكذلك على نظرية المعرفة الجغرافية .

لننظر على سبيل المثال إلى ولايات ما يُسمى بـ "مرسوم الشمال الغربي" ، كما وُجدت بفضل العمل الإبداعي لتوماس جيفرسون . ما هي أنواع هذه الكيانات التي يُمكن إنشاؤها ببساطة عن طريق رسم بضعة خطوط على خريطة ؟ ما هي أشكال وحدود هذا الإبداع ؟ وإذا كانت جميع الكيانات الجغرافية تنطوي على أعمال إبداعية من نوع أو آخر، فهل هناك أي مجال لاكتشافات جغرافية حقيقية ؟ تنطبق هذه الأسئلة على الكيانات واسعة النطاق التي نجدها مصورة في الخرائط والأطالس العادية ، وكذلك على العالم الجغرافي الأصغر حجمًا الذي يظهر في السجل العقاري ، والذي خصص له باري سميث وليو زاييرت كتابهما "ميتافيزيقيا العقارات" .

وهنا أيضًا ، لا يُعد تقسيم الأراضي إلى عقارات مسألة هندسية فحسب ؛ بل من الضروري أن يؤمن الناس بأن الشخص الذي سيّج قطعة أرض هو المالك الفعلي لها ، لذا تبدو القصدية الجماعية ضرورية لتفسير الفرق بين الملكية العقارية والأرض الخام . أما بالنسبة للنوع الثاني من الأسئلة - البنية المكانية (والزمانية المكانية) للعالم الجغرافي - فإن مجموعة الأدوات التمثيلية المعقدة التي استفاد منها الجغرافيون قد بُحثت باستفاضة في ورقة أنتوني غالتون البحثية "المكان والزمان وتمثيل الواقع الجغرافي". تتراوح الخيارات هنا من التمثيلات القائمة على الكائنات والتمثيلات القائمة على الحقول إلى التعارض الرياضي بين النماذج المستمرة والمنفصلة إلى التعارض اللغوي ذي الصلة بين وصف الكتلة والعدد - كما هو الحال عندما نقول إن منطقة معينة "مغطاة بغابة" بينما منطقة أخرى بها "ثلاثة" .

بعض هذه الفروقات المفاهيمية ، بدورها ، قد تتأثر بظاهرة الغموض ، كما هو الحال عندما نحاول تحديد ما نحصيه بالضبط (أو ما يندرج ضمن امتداد اسم كتلة معين) . هذا هو موضوع مساهمة براندون بينيت ، "ما هي الغابة ؟" ، بينما يقدم كتاب روبرتو كاساتي "الجوانب المعرفية للتلاعب بالدوائر الانتخابية" مزيدًا من المواد لتقييم الدور الذي يبدو أن الخصائص الهندسية تلعبه بشكل عام في مفهومنا العادي للكيانات الجغرافية . وأخيرًا، في كتاب "حول العالم" ، يتناول جون كولينز مسألة تقع في منتصف الطريق بين قضايا الغموض وقضايا النمذجة الهندسية . كان الطيران حول العالم بدون توقف في منطاد أحد آخر التحديات الكبرى للطيران - وهو تحدٍ استمر حتى على مر سنوات السفر بالطائرات النفاثة الأسرع من الصوت.

ولكن ما الذي يُشكل بالضبط "الدوران حول العالم" ؟ ما نوع المعايير التي يجب استخدامها في حسم الأمر؟ وكيف أدرك برتراند بيكارد وبريان جونز - رائدا المنطاد اللذان أكملا أول رحلة طيران متواصلة حول العالم في 20 مارس 1999 - أنهما قد فعلاها أخيرًا ؟ بالطبع، لا مجال للتظاهر بالاكتمال . لكن هذه الأوراق البحثية مجتمعةً تُقدم صورةً إرشاديةً لثراء المادة الفلسفية التي تختبئ وراء عالم الخرائط الجغرافية المسطح . دعونا نستعرض المزيد من الأمثلة عن كيف يُمكن أن يأخذنا هذا إلى ما هو أبعد من القضايا التي نُوقشت حتى الآن في الأدبيات الفلسفية المُخصصة للمسائل المتعلقة بالجغرافيا.

لغز ماسون-ديكسون

على عكس معظم الأجسام العادية ، ترتبط الكيانات الجغرافية ارتباطًا وثيقًا بمناطق الفضاء التي تشغلها ، حتى لو أصرّ المرء على أن هذا الارتباط لا يرقى إلى مستوى الهوية . يمكن للأجسام العادية أن تتحرك أو تهاجر من مكان إلى آخر؛ أما الكيانات الجغرافية فعادةً ما تكون ثابتة (أو تتحرك بمعدل التغيرات الجيولوجية) . هذا يعني أن الكيانات الجغرافية ترث من الفضاء ، يُدرك السياسيون ورسامو الخرائط على حد سواء هذه الحقيقة جيدًا عند تقسيمهم العالم وفقًا لمبادئ هندسة الفسيفساء ، أو عند اعتمادهم على تخمين الألوان الأربعة (على سبيل المثال) في تلوين خرائطهم . في الواقع ، تتعامل الجغرافيا مع أسلوب تمثيل هندسي يجد جذوره في البنية الميرولوجي للعالم الممتد . إنها تتعامل مع كيانات قد تتداخل أو تفشل في التداخل ، أو تحتوي على أجزاء تتداخل بطرق مختلفة .

لكن هذه الكيانات لا تمتلك أجزاءً ممتدة فحسب ، بل تمتلك أيضًا حدودًا ، تُساهم في تكوينها الوجودي بقدر ما تُساهم الأجزاء نفسها ، وهي ذات أهمية أساسية عندما يتعلق الأمر بمسائل التصنيف الجغرافي التدرجي . في بعض الأحيان ، قد يكون الموقع الدقيق للحدود غير واضح أو مثيرًا للجدل . وفي بعض الأحيان ، يكون تحديد ماهية الشيء هو ما قد يؤثر على موقع الحدود ذات الصلة . (قد تقع حدود معلم طبوغرافي معين أعلى أو أسفل المنحدر، على سبيل المثال ، اعتمادًا على ما إذا كان المعلم مُعرّفًا على أنه مستنقع أو بحيرة.) ولكن مما لا شك فيه أن الحدود تلعب دورًا محوريًا في تصنيف وتمثيل الكيانات الجغرافية . وبناءً على ذلك ، يجب أن يتضمن أي وصف كافٍ للعالم الجغرافي نظريةً ميرولوجية للأجزاء والكل ، بالإضافة إلى نظرية طوبولوجية للحدود .

مع ذلك ، تُعدّ الحدود أيضًا مصدرًا للمشاكل . لننظر إلى خط ماسون-ديكسون الذي يفصل بين ولايتي ماريلاند وبنسلفانيا . من يملكه ؟ من الواضح أنه من غير المنطقي افتراض أنه ينتمي إلى ولاية دون الأخرى . ولكن - وبالقدر نفسه من الوضوح - لا يمكننا القول إن الحدود غير مملوكة : فدول الاتحاد تستهلك كامل الإقليم - ولا يمكن ترك حدود كخطوط رفيعة بينها . ولا يمكننا القول إن الحدود ملكٌ لكلتا الدولتين أيضًا : فنحن نتحدث عن دولتين متجاورتين ، لذا لا يمكن أن تشترك أراضيهما في أي أجزاء . بهذا الشكل ، يُعدّ

اللغز مثالًا على مشكلة أوسع تتعلق بالمفهوم العام للحدود . وكما قال ليوناردو في فقرة لا تُنسى من دفاتره : "ما الذي يفصل الغلاف الجوي عن الماء ؟" هل هناك "حدود مشتركة ، ليست هواءً ولا ماءً ، بل هي بلا مادة ، لأن وجود جسم بين جسمين يمنع اتصالهما ، وهذا لا يحدث في الماء مع الهواء" ؟ أو لننظر إلى قلق بيرس بشأن خط الترسيم بين بقعة سوداء وخلفية بيضاء . ما لونها ؟

لنفترض أننا نسير على طول مسار يربط داخل البقعة بخارجها . من الواضح، بالنظر إلى كثافة المتصل ، أننا لا نمر بنقطة سوداء أخيرة x ونقطة بيضاء أولى y ؛ وإلا فسنضطر إلى الاعتراف بعدد لا نهائي من النقاط الإضافية بين x وy ، والتي ستكون ، بطريقة ما ، إما سوداء أو بيضاء . كما لا يبدو من الصواب القول إننا نمر بنقطة حدودية سوداء وبيضاء في آنٍ واحد . ومع ذلك ، فإن الاعتراف بوجود نقطة واحدة فقط من x و y دون الأخرى ، كما تمليه المعالجة الرياضية القياسية للمتصل ، يبدو أنه يُمثل تفضيلًا غريبًا لإحدى المنطقتين على الأخرى . سيؤدي ذلك إلى عدم تماثل غريب وغير مبرر بينهما .

وحتى لو أمكن الاستناد إلى معطيات الشكل / الأرضية لتفسير عدم التماثل في حالة البقعة السوداء ، فستكون هناك حالات أخرى قابلة للنقاش . فما هو الشكل وما هي الأرض عندما يتعلق الأمر بجزأين متجاورين من البقعة السوداء ؟ ما هو الشكل وما هي الأرض عندما يتعلق الأمر بماريلاند ؟ وبنسلفانيا ؟ ماذا يحدث عند تجاوز خط ماسون-ديكسون ؟ (هذه مشكلة للجغرافي ورسام الخرائط على حد سواء ، مع أن الخريطة الفعلية للولايات المتحدة لا تعاني من هذه المشكلة نظرًا للطابع الرقمي للعرض . لكننا لا نعد الخرائط عادةً كائنات محدودة بهذا المعنى ، لأننا لا نقلق عادةً بشأن ما إذا كانت الرموز المختلفة من نوع الخريطة نفسها يجب أن تحتوي على عدد النقاط الملونة نفسها) .

من الصعب التعامل مع أسئلة كهذه ، وقد ساهمت هذه الصعوبة في تشويه أي موقف واقعي تجاه الحدود . يُقال إنه يجب علينا الاستغناء عن الحدود ، وعد الحديث عن الحدود مجرد وسيلة للحديث عن أشياء أخرى (على سبيل المثال ، عن سلسلة لا نهائية من المناطق الممتدة المتداخلة) . أما صحة هذا المنطق ، فهو سؤال عام لا داعي لبحثه هنا . لكن يمكننا أن نأخذ في الحسبان حقيقة أن الجغرافيين (والسياسيين ، وربما الناس عمومًا) لا يعدون الحدود الجغرافية كيانات مجردة على الإطلاق . يخوض الناس حروبًا من أجل هذه الحدود . إنهم يضحون بحياتهم للدفاع عن حدود أراضيهم أو لتغييرها أو للتخلص منها . الحدود الجيوسياسية هي سجلات مكانية لأنماط تفاعل معقدة للغاية بين المجتمعات المتجاورة ، سواء كانت تُشير إلى العداء بين تلك المجتمعات أو العلاقات الآمنة التي تربطها .

حتى في أوقات السلم ، توجد قطاعات كاملة (مثل قانون العقارات ، والتسجيل العقاري ، ومسح الأراضي) ، بالإضافة إلى مجموعة من المكاتب الإدارية (مثل مراقبة الجوازات ، والجمارك ، والهجرة ، إلخ) مُكرسة للحفاظ على هذه الحدود . وكما قال توماس ويلسون وهاستينغز دونان ، فإن الحدود الوطنية هي "الأغشية السياسية التي يجب أن يمر عبرها الأشخاص والسلع والثروات والمعلومات لكي تُعد مقبولة أو غير مقبولة من قِبل الدولة". من الصعب عد كل هذا مجرد أسلوب نقاش . وبقدر ما تُؤخذ الحدود الجغرافية على محمل الجد ، يجب أن تُؤخذ المعضلات الفلسفية المرتبطة بمفهوم الحدود على محمل الجد أيضًا. (مرة أخرى ، هناك مسألة تفصيلية كامنة في خلفية هذه المخاوف . نحن نفكر في الحدود على أنها ذات سمك صفري ، على الرغم من أن معظم الحدود الفعلية ثنائية الأبعاد محليًا ، كما هو الحال مع الأرض الحرام التي كانت تُحيط ببرلين الغربية . لكن هذا غير ذي صلة بقدر ما يُخطط الجغرافيون لهذه الحدود عادةً إما كخطوط أو كأشرطة محدودة - مع مراعاة قضايا الغموض المذكورة أدناه).

لا يمكن تسوية الكثير من القضايا السياسية من خلال تفسير فلسفي لمفهوم الحدود - وهذا صحيح . من المرجح أن تنهار الحسابات المسبقة تحت ضغط الأدلة التجريبية . ومع ذلك ، يصعب طرح أسئلة أخرى مُلبسًا دون فهمٍ للخصائص المرتبطة بمفهوم الحدود الجغرافية . فمن المؤكد أن المفهوم الطوبولوجي العادي للحدود ليس كافيًا في جميع الحالات . على سبيل المثال ، تُفسر الطوبولوجيا الرياضية القياسية جميع الحدود على أنها متماثلة ، بمعنى أن حدود كيان معين هي أيضًا حدود مُكمله . ولكن هل جميع الحدود الجغرافية متماثلة بهذا المعنى ؟ غالبًا ما تكون كذلك ، لأن الحدود غالبًا ما تكون نتيجة تفاوض واتفاق متبادل (وهي عملية قد تستغرق قرونًا ، كما في حالة الحدود الفرنسية الإسبانية في سيردانيا).

ولكن ليست جميع الحدود الجغرافية متوازنة ، وفي ظروف معينة قد يكون من الأنسب الحديث عن حدود غير متماثلة أو "موجهة" - حدود تربط إقليمًا في اتجاه واحد فقط ، لأن كيانًا جغرافيًا واحدًا فقط من الكيانات التي تفصلها الحدود يعترف بالحدود نفسها . كان هذا هو الحال ، على سبيل المثال ، عند الحدود القديمة بين ألمانيا الديمقراطية وجمهورية ألمانيا الاتحادية . وهو الحال أيضًا عند أي حدود يُعدّ الاعتراف بها إضفاءً للشرعية على قرار عسكري أو سياسي غير مقبول ، كما هو الحال مع خط السيطرة في كشمير (الذي لا تعترف به الهند) أو مع خط دوراند الذي مثّل الحدود بين أفغانستان وباكستان (الذي لم تقبله الحكومة الأفغانية تمامًا) . في مثل هذه الحالات، تكون الصورة الطوبولوجية القياسية غير كافية ، ويبدو أن هناك حاجة إلى نوع مختلف تمامًا من الطوبولوجيا - نوع يستغني عن شرط التماثل .

إلى جانب ذلك ، فإن افتراض وجوب معاملة جميع الحدود بمصطلحات طوبولوجية عادية هو تحديدًا ما يُثير الإشكاليات المرتبطة بخط ماسون-ديكسون . وكما ذُكر سابقًا ، وكما يُجادل سميث في ورقته البحثية ، يبدو أن على الجغرافيين التمييز بين نوعين على الأقل من الحدود . من ناحية ، هناك كيانات مثل أستراليا ، وجزيرة مالطا ، وبحيرة أونتاريو - كيانات تتوافق حدودها مع بعض الانقطاعات النوعية الحقيقية (السواحل ، والمجاري المائية ، وما إلى ذلك) في الإقليم الأساسي . من ناحية أخرى ، لدينا ماريلاند وبنسلفانيا ، وساسكات تشيوان ، أو بحر الشمال ، والتي تُعد حدودها ، جزئيًا على الأقل ، نتيجةً لمرسوم بشري ولا تعكس أي تمايزات فيزيائية سابقة .

كما أن حدود العديد من الكيانات الجغرافية الأخرى ، مثل الأراضي الرطبة أو مناطق نوع معين من التربة ، هي أيضًا جزئيًا من نوع المرسوم ، على الرغم من أنها قد تنشأ عن عمليات معرفية أو ثقافية (أو شروط علمية) بدلاً من عمليات قانونية أو سياسية . و جادل سميث بأن التعبير عن هذين المفهومين للحدود أمر بالغ الأهمية لفهمنا لعالم الجغرافيا (إن لم يكن لفهمنا لعالم الكيانات الممتدة) . على سبيل المثال ، يتعلق الأمر تحديدًا بالأشياء الملموسة في بيئتنا الجغرافية المحلية -البيئة - على سبيل المثال ، فيما يتعلق بقطع الأراضي - يجب فهم دور لا غنى عنه للمساح في مجتمعنا .

لو كانت السمات الطبوغرافية التي يسهل التعرف عليها للبيئة المحلية هي فقط ذات أهمية في حياتنا ، لاقتصر دور المساح على رسم خرائط لسمات التضاريس واسعة النطاق ، وهي سمات يصعب الوصول إليها بالإدراك غير الموجه ولكنها مهمة للملاحة وتخطيط المسارات وما شابه . الآن ، قد تتضمن الحدود القانونية بمرور الوقت مكونات مادية ، مثل الحواجز والجدران والأسوار الشائكة أو الأجهزة الإلكترونية . وفي بعض الأحيان ، قد تُستبدل الحدود الحقيقية نفسها بحدود قانونية ، كما هو الحال عند بناء جسر يربط بين ضفتي نهر، أو عند ملء مجرى نهر أو انحرافه بطريقة أخرى . (تقع كينغزبريدج على الجانب الشمالي لنهر هارلم ، لكنها جزء من بورو مانهاتن لأنها تقع جنوب مجرى نهر هارلم الأصلي.)

ومع ذلك ، فإن التعارض بين "الواقع" و"الواقع" ليس مسألة درجة . إنه تمييز فئوي صارم . وبمجرد قبول نوعين من الحدود ، يُطرح سؤال تصنيفهما المفاهيمي مرة أخرى . ربما يمكننا عد طوبولوجيا "الحدود

الواقعية" طوبولوجيا قياسية ، و وفقًا لها ، لا يكون الاتصال الحقيقي ممكنًا إلا بين كيانين ، أحدهما "مفتوح" في منطقة الاتصال والآخر "مغلق" . (جزيرة مالطا ، بهذا المعنى ، كيان مغلق على اتصال ببيئته المفتوحة) . ولكن يبدو أن "الحدود الواقعية" تستدعي نوعًا مختلفًا من الطوبولوجيا . هل يجب أن يسمح مفهوم "الواقعية" ذي الصلة بإمكانية التطابق المكاني ؟ هل ينبغي تفسير خط ماسون-ديكسون على أنه يتكون من جزأين ، حدودان متطابقتان ومتميزتان ، تُرسّمان ولايتي ماريلاند وبنسلفانيا على التوالي ؟ وأخيرًا ، يتعين علينا أحيانًا التعامل مع حدود وحدود جغرافية أخرى تُصوَّر على أنها مناطق ضبابية بدلًا من خطوط واضحة .

خط ماسون-ديكسون دقيق تمامًا : مسألة ما إذا كان شيء ما يقع في ماريلاند أو بنسلفانيا تُحدَّد ، من حيث المبدأ على الأقل (مع ترك التغيرات الجيولوجية على سطح الأرض جانبًا) . حتى الحدود الإشكالية ، مثل تلك التي بين فرنسا وإسبانيا في الماضي ، أو بين أيرلندا وأيرلندا الشمالية اليوم ، واضحة تمامًا على الرغم من وجود روابط عرقية مهمة عبرها . ولكن ماذا عن الحدود بين إسرائيل وجيرانها العرب ؟ ماذا عن حدود منطقة البحر الكاريبي ، أو حدود المناطق النائية الأسترالية ؟ ماذا عن حدود الصحاري والوديان والغابات والجبال ؟ لا يبدو أن هذه المناطق واضحة ، بل هي مناطق حدودية غير دقيقة وغير محددة المعالم ، ومتناثرة الاستقرار.

الغموض الشامل

دعونا نتعمق في هذه المسألة الأخيرة . الغموض ظاهرة متفشية في الفكر واللغة البشرية ، ومن الواضح أن عالم الجغرافيا ليس بمنأى عنها . لا معنى للسؤال عن أدنى جبل على وجه الأرض ، أو أقصر نهر ، أو أصغر مدينة . لا معنى لذلك لأن مفاهيم مثل "جبل" و"نهر" و"قرية" لا تخضع لمعايير تطبيق دقيقة . على سبيل المثال ، لا يوجد حد أدنى دقيق لارتفاع الجبل ، وبالتالي لا يوجد معيار يفصل أدنى جبل عن أعلى تل . كما تُعرّف القواميس الإنجليزية القياسية ، فإن الجبل هو ببساطة "كتلة يابسة تبرز بوضوح فوق محيطها وتكون أعلى من التل" ، بينما التل هو "ارتفاع طبيعي للأرض أدنى من الجبل" . لا يُمثّل هذا تحسينًا يُذكر على تعريف سولخان-سابا أوربيلياني للجبل بأنه "مكان مرتفع وبارد" . بالطبع ، يُمكن للمرء أن يُحلّ هذا الغموض بوضع شروط عشوائية . تُحدّد الجمعية الجيولوجية البريطانية الحدّ الأدنى للجبل عند 2000 قدم.

لكن هذا يترك العديد من السمات الأخرى لـ"الجبل" غير واضحة . (مسلة بارتفاع 2000 قدم ليست جبلًا) . بدلًا من ذلك ، اقترح كوين ذات مرة تعريفًا مفاده أن الجبل هو "أي منطقة من سطح الأرض بحيث (أ) تكون حدودها ذات ارتفاع منتظم ، (ب) تكون أعلى نقطة ، أو إحداها ، على ميل لا يقل عن عشر درجات فوق كل نقطة حدودية وعشرين درجة فوق بعضها ، و(ج) لا تكون المنطقة جزءًا من أي منطقة أخرى تحقق (أ) و(ب) . " قد ينجح هذا ، ولكن ، مرة أخرى ، من الحقائق الثابتة أنه لم يفكر أي جغرافي في تنظيم لغتنا بهذه الطريقة - ولا حتى اللغة التقنية للجغرافيا نفسها . لذا، فمن الحقائق الثابتة أن لغة الجغرافيا غامضة للغاية .

على سبيل المثال ، حسب الجغرافي تاباني سارجاكوسكي أن فنلندا لديها بالضبط 187,888 بحيرة ، و179,584 جزيرة ، و647 نهرًا . وهو إنجاز رائع . لكن الحساب يعتمد على تعريفات شرطية يجدها الجغرافيون أنفسهم إشكالية - على سبيل المثال ، تعريف البحيرة بأنها مسطح مائي لا تقل مساحته عن 0.05 هكتار . ماذا عن مجموعات البرك داخل مستنقع ، مستنقع قد يتجمد في الشتاء أو يجف في الصيف ؟ ماذا عن البحيرات الموسمية الناتجة عن ذوبان الثلوج ؟ ماذا عن البحيرات التي تأتي وتذهب بينما يبني الناس أو

يهدمون السدود والخزانات والحواجز من مختلف الأنواع لأغراض الصرف الاصطناعي ؟ هذا النوع من الغموض المفاهيمي هو سمة مشتركة بين الجغرافيا والعديد من التخصصات الأخرى .

يمكن القول إن الجهاز المفاهيمي لكل تخصص - بما في ذلك العلوم الفيزيائية - غامض إلى حد ما . لكن غموض الجغرافيا أكثر انتشارًا من هذا . فهو لا يؤثر فقط على الجهاز التصنيفي الذي يستخدمه الجغرافيون لوصف العالم ؛ ويبدو أنه يؤثر أيضًا على الغالبية العظمى من الأشياء الفردية التي يتحدثون عنها . فما الذي يتحدث عنه الجغرافيون تحديدًا عندما يقولون إن إيفرست هو أعلى جبل على وجه الأرض ، أو إن النيل هو أطول نهر، أو إن طوكيو هي أكبر مدينة ؟ لا يقتصر الأمر على وجود بعض الغموض في المصطلحات محل النقاش . فمن الواضح أنه من الصعب تجميع قائمة مقارنة دقيقة لأكثر مدن العالم اكتظاظًا بالسكان نظرًا لتنوع المعايير التي يمكن للمرء مراعاتها لتحديد التجمعات الحضرية ذات الصلة . وبالمثل ، قد يتردد المرء في تسمية إيفرست أعلى جبل نظرًا لوجود معايير مختلفة لقياس ارتفاع الجبل . ولكن هذه غموضات يمكن حلها بسهولة.

إذا اتفقنا على إدراج يوكوهاما وكاواساكي ، فإن طوكيو هي بلا شك أكبر مدينة في العالم . وإلا ، فربما تأتي سيول أولاً ، أو ربما مكسيكو سيتي ، أو نيويورك (بشرط تضمين نيوارك وباترسون) . إذا اتفقنا على قياس ارتفاعات الجبال من مستوى سطح البحر، فإن إيفرست هو بلا شك أعلى جبل على هذا الكوكب (29035 قدمًا) . ولكن إذا قررنا قياس الارتفاعات من القمة إلى القاعدة ، فستذهب الجائزة إلى بركان ماونا كيا في هاواي (33480 قدمًا، مقابل 11000 قدم لجبل إيفرست المتواضع) ؛ وإذا نظرنا إلى المسافة من القمة إلى مركز الأرض ، كما يحلو للبعض أن يفعل ، فسيكون أعلى جبل على الإطلاق هو بركان تشيمبورازو في جبال الأنديز (أعلى من إيفرست بحوالي 7000 قدم).

هذه غموضات طفيفة ، ويمكن إزالتها بسهولة من خلال الاتفاق . تكمن الصعوبة الرئيسية والتحدي في أنه بمجرد إزالة هذه الغموضات ، يبقى غموض عميق لا يمكن إزالت ه. فما هو هذا الجبل الذي يبلغ ارتفاعه 29,035 قدمًا فوق مستوى سطح البحر؟ ما هو جبل إيفرست تحديدًا ؟ أين يبدأ وأين ينتهي؟ وماذا عن حدود الكيانات الجغرافية الأخرى التي ذكرناها للتو والمذكورة في خرائطنا للعالم ؟ كما يشير بينيت في مساهمته ، لطالما أدرك الجغرافيون الصعوبات التي تنطوي عليها مثل هذه الأسئلة ، وقد بُذلت جهود كبيرة (من قِبل المساحين ورسامي الخرائط ، وكذلك من قِبل الباحثين في علم المعلومات الجغرافية المحوسبة) لابتكار طرق للسيطرة على الغموض .

يتحدث البعض وكأن هذا النوع من الغموض منطقي حقًا . إن القول بأنه لا توجد حدود محددة لجبل إيفرست (على سبيل المثال) يعني التعامل مع إيفرست كجسم غامض . بعض المناطق ستتداخل بالتأكيد مع جبل إيفرست ، وأخرى لن تتداخل معه بالتأكيد ، لكن المناطق الطرفية ستكون لها حالة غير محددة : لن يكون هناك أي دليل على تداخلها مع الجبل . وينطبق الأمر نفسه على جميع الجبال الأخرى ، وكذلك على أنواع أخرى من التضاريس الجغرافية . كيانات مثل المدن والغابات والأنهار والأحياء وما إلى ذلك . ستكون هذه كلها قاطنيًا غامضين للواقع . ومثل شخصيات لوحة سورات ، ستفتقر إلى حدود محددة. ستتلاشى حدودها حرفيًا، وسيمثل التمييز الطوبولوجي التقليدي بين الداخل والخارج مثالية غير واقعية .

يفضل آخرون الحديث عن عدم تحديد الجغرافيا على أنه أمر دلالي ، وليس وجوديًا . يكمن الغموض حصريًا في التسمية الجغرافية ، والقول إن اسمًا معينًا يدل على شيء ذي حدود غامضة يعني القول إن الاسم يدل على شيء بشكل غامض ، وليس أنه يدل على شيء غامض . على سبيل المثال ، ستكون لجبل إيفرست حدود غامضة بقدر ما تم تحديد مرجع "إيفرست" بشكل غامض (ربما بسبب غموض مفهوم الجبل) . لكن هذا لا يعني وجود شيءٍ مُهمَلٍ حقًا . ستكون هناك العديد من أكوام التربة التي يُمكن ربطها باسم "إيفرست"

- طرقٌ عديدة لتتبع حدود منطقةٍ جبلية الشكل تتوافق مع كيفية استخدام الاسم فعليًا - لكن كل واحدةٍ منها ستكون مُحددة تمامًا . سيكون المصطلح غامضًا على وجه التحديد بسبب هذه المجموعة من الخيارات الدلالية المقبولة على حدٍ سواء .

سواءٌ فكرنا في إيفرست كشيءٍ غامض أو في "إيفرست" كاسمٍ غامض ، فمن الواضح أن عدم التحديد المُتضمن في حالاتٍ كهذه لا يُختزل إلى غموض . يحمل هذا عدم التحديد علامة الغموض لأنه يُؤدي إلى حججٍ متناقضةٍ من نوع سوريتس، وهي العرض الجوهري للغموض : من الواضح أنه على بُعد قدمٍ واحدةٍ من القمة ، ما زلنا على إيفرست ؛ ويبدو طبيعيًا أن نقول إنه إذا كنا ما نزال على جبل إيفرست على بُعد ن أقدام من القمة ، فإننا نكون على بُعد ن + قدم واحدة من القمة . (قدم واحدة لا تُحدث فرقًا). ومع ذلك ، فإن هاتين العبارتين تُشيران منطقيًا إلى أنه يجب أن نكون على جبل إيفرست على أي مسافة من القمة - وهذا أمر سخيف . إما أن نتخلى عن بعض المبادئ المنطقية الأساسية أو نجد طريقة لرفض إحدى المقدمتين - ربما الثانية . لكن لاحظ : هذا ليس شيئًا يُمكننا فعله على أسس معرفية ، كما لو أن ميلنا إلى الموافقة على المقدمة الثانية لمفارقة سوريتس كان مجرد مسألة جهل منا . حدود إيفرست ليست مجهولة (أو غير قابلة للمعرفة) بالنسبة لنا فحسب ، بل هي في الواقع غير محددة .

رسم الخط

قد يُصر البعض على أن هذه المخاوف خاطئة . الجغرافي ديفيد مارك على سبيل المثال ، يؤكد على حقيقة أن "الناس يمكنهم ، بل ويفعلون، الإشارة إلى جبال معينة دون التفكير فيما إذا كان للجبل حدود ، ناهيك عن عد أن هذه الحدود تقع في مكان ما" . فنحن عادةً نعرف كيفية استخدام أسماء الجبال - والمصطلحات الجغرافية عمومًا - دون أن نكون قادرين على تقديم تفسير دقيق لأسباب هذه الكفاءة ، تمامًا كما قد نعرف صوت الكمان دون أن نكون قادرين على شرحه . لا شك في ذلك . ومع ذلك ، هناك سؤال فلسفي مثير للاهتمام هنا . فما هو النموذج الذي يمكننا تقديمه لهذا النوع من الكفاءة - لقدرتنا على التعايش مع الغموض في مثل هذه الحالات ؟ لماذا ، على سبيل المثال، نتفق جميعًا على أن جبل إيفرست يقع في آسيا وأنه ليس في أوروبا ، مع أننا قد نختلف أو نعلق الحكم بشأن مدى امتداده غربًا ؟

وكيف نتجنب المنحدر الزلق الذي تمثله مفارقة سوريتس ؟ مرة أخرى ، إذا طرحنا الأمر بهذه الطريقة ، فإن المشكلة تنشأ في كل مجال - وليس فقط في الجغرافيا . ما هي حدود تلك السحابة في السماء ؟ أين تقع حافة هذه البركة بالضبط ؟ أين اندلعت الثورة الفرنسية بالضبط ؟ هناك بالفعل تشابه كبير بين حالات كهذه وهذا النوع من الغموض الذي يتجلى في العالم الجغرافي . ولكن ربما يأتي التشابه تحديدًا من حقيقة أن الغموض يبدو وكأنه مسألة حدود غامضة ، وكما رأينا للتو ، فإن عالم الجغرافيا هو عالم حيث تكون الحدود مهمة للغاية . (نحن ، في النهاية ، نتحدث عن أطالس التشريح الجراحي ، وخرائط الدماغ ، وما إلى ذلك).

يبدو أن التمييز التصنيفي بين حدود "الموافقة" و"الموافقة" يلعب دورًا حاسمًا في هذا الصدد . يمكن للمرء أن يجادل بأن حدود "الموافقة" دائمًا واضحة ، على الأقل بالقدر الذي تعكس فيه انقطاعًا حقيقيًا في المنطقة المادية الأساسية . على النقيض من ذلك ، ليس بالضرورة أن تكون حدود "الموافقة" واضحة . أحيانًا تكون كذلك ، كما هو الحال مع حدود كيانات جيوسياسية كالدول والولايات والمقاطعات والمناطق البريدية ، وكذلك حدود قطع الأراضي المسجلة في السجل العقاري . ولكن غالبًا ما تكون العملية المؤدية إلى ترسيم الحدود الرسمية غير دقيقة - كما هو الحال في منطقة البحر الكاريبي أو وسط مانهاتن . في مثل هذه الحالات ، قد يكون تحديد ما إذا كان هناك شيء ما على هذا الجانب أو ذاك من الحدود غير محدد .

ينطبق هذا أيضًا على الكيانات الجيوسياسية التي تُرسم حدودها بصعوبة بالغة ، من خلال الصراع والقتال بدلًا من شحذ أقلام الجغرافيين . (حتى عندما تكون الحدود الناتجة حادة ، غالبًا ما يتحدث الجغرافيون السياسيون وعلماء الأنثروبولوجيا عن "حدود" غامضة ، تُفهم على أنها منطقة واسعة من الرفاهية) . وينطبق الشيء نفسه على العديد من الكيانات الجيوفيزيائية أيضًا ، مثل الصحاري والأنهار والخلجان والجبال ، التي يشير إليها الناس العاديون والجغرافيون على حد سواء في ممارساتهم اليومية . عندما يكون الاسم تم تقديم "إيفرست" ، وتم نحت مرجع بطريقة تجعل جزءًا من حدوده (السطح الذي يفصل باطنه عن الغلاف الجوي) من النوع الحقيقي ؛ كان موجودًا بشكل مستقل عن نشاطنا المفاهيمي . لكن جزءًا من الحدود (ذلك الجزء الذي يجب أن يحدد سفوح إيفرست) كان من النوع الحقيقي . لم يتوافق مع أي انقطاع طبيعي ، ولم يكلف أعضاء المكتب الجيوديسي الهندي الذين قدموا الاسم - أو الجغرافيون الذين تبعوهم - أنفسهم عناء جعل أنفسهم دقيقين .

من المؤكد أن الحدود الحقيقية قد تنطوي على نوع من الغموض ، ولكن فقط بقدر ما يكون من غير الواضح أحيانًا ما هو الحد الحقيقي ذي الصلة . خذ في الحسبان السؤال "أين بالضبط ، وكم يبلغ طول ساحل بريطانيا ؟" مألوف من مناقشة الكسيريات . أو لنأخذ في الحسبان حقيقة أنه في بعض الحالات ، لا يكون الانقطاع الحقيقي الذي يمثله نهر (مثلاً) سوى قيد على تعريف الحدود الجغرافية الرسمية . غالبًا ما يُعرّف هذا بخط غير مرئي ، ملزم ، يمر في مكان ما عبر "منتصف" النهر، أو قد يُعرّف بأحد خطي الشاطئ ، كما هو الحال مع حدود فيرمونت-نيو هامبشاير (التي تُعرّف بضفة فيرمونت لنهر كونيتيكت).

قد تكون لمثل هذه الحالات عواقب عملية في الواقع . يُخبرني ألين هازن أن شركة السكك الحديدية التي بنت الخط على طول وادي كونيتيكت (وهو خط يستخدمه الآن قطار أمتراك الليلي بين نيويورك ومونتريال) بنته بشكل أساسي على جانب فيرمونت من النهر، ولكن في بعض الأماكن عبرت انبعاجات طفيفة في الضفة على الجسور . يُقال إن هذا كان سينقلهم إلى نيو هامبشاير - يواصل هازن - لذا كان على الشركة الحصول على ميثاق نيو هامبشاير : ربما كان من الممكن تجنب هذا بتقريب أكثر دقة للمنحنى الفعلي (تقريبه بسلسلة من المماسات يبلغ طولها بضع مئات من الأقدام ، على سبيل المثال) . هذه حالات مثيرة للاهتمام ، وعالم الجغرافيا مليء بها . ولكن يبدو من المعقول القول إن الغموض الذي تُظهره ليس سمة من سمات الحدود الحقيقية ذات الصلة . بل إن تحديد تلك الحدود واستغلالها من قِبل الجغرافيين والسياسيين هو ما يبدو أنه يعاني من الإهمال وانعدام الدقة .

أحد الأسئلة المثيرة للاهتمام إذن هو ما إذا كان يمكن استخدام التمييز بين الحدود الشرعية والحقيقية بشكل مباشر لدعم التمييز بين الغموض الدلالي والغموض الوجودي . يمكن للمرء أن يجادل بأن كل غموض دلالي (أو معرفي بشكل عام) تحديدًا بقدر ما يتعلق حصريًا بمجال نطق "الأمر الواقع". ومع ذلك ، وكما يؤكد سميث ، يمكن رسم ثنائية "الأمر الواقع" و"الصدق" ليس فقط فيما يتعلق بالحدود ، ولكن أيضًا فيما يتعلق بالأشياء . أستراليا كيان جغرافي حقيقي ، لكن ساسكاتشوان ، ولايات المرسوم ، أو بحر الشمال ، كياناتٌ فعلية . ومع ذلك ، فإن طبيعتها الإلزامية لا تحرمها من الموضوعية التي ينسبها إليها الجغرافيون .

يمكن القول إن كيانات الإلزامية حقيقية تمامًا مثل كيانات النية الحسنة . وبالتالي، فإن القول بأن الغموض يتعلق بمجال تعبيرات الإلزامية يعني القول إنه يؤثر على كيانات من نوع ما . بعبارة أخرى ، إذا كان للتمييز بين كيانات الإلزامية والنية الحسنة قوة وجودية ، فإن ظاهرة الغموض المقابلة لها قوة وجودية أيضًا - أو هكذا يمكن للمرء أن يجادل . علاوة على ذلك ، ربما تكون حدود الإلزامية أكثر انتشارًا مما تشير إليه أمثلتنا . ربما تعمل دائمًا في التعبير عن الأشياء التي يتعين على الجغرافيين التعامل معها . إذا فكرنا في الجسم المادي كنظام معقد من الجسيمات الدقيقة المجهرية ، فإن حتى الحد المادي لجبل إيفرست - الذي يفصله

عن الغلاف الجوي - ينطوي على درجة من التعسف . قد ينطبق الأمر نفسه على جميع أنواع الحدود التي تبدو حقيقية ، بما في ذلك حدود الجزر والبحيرات والكواكب . (يقترح بينيت شيئًا من هذا القبيل فيما يتعلق بحدود الغابات) . وبقدر ما يمكن القول إن لهذه الكيانات حدودًا غامضة ، فلا بد أن تكون حدودها من النوع المصدق . ولكن بقدر ما تكون هذه الكيانات كيانات أصلًا ، فإن غموضها يبدو من النوع الوجودي في النهاية.

هويات الحدود

الحدود الجغرافية ليست ثابتة ، إنها تتغير باستمرار. ومع تغير الحدود، تتغير الكيانات الجغرافية التي تربطها . فكما شهدت ليبيا ومصر رسم حدودهما مرارًا وتكرارًا على رمال الصحراء الكبرى ، انشغل رسامو الخرائط السياسية مؤخرًا برسم ومحو وإعادة رسم خرائطهم للعالم . فمع انقسام تشيكوسلوفاكيا وتفكك يوغوسلافيا ، توحدت ألمانيا . مع تفكك الاتحاد السوفيتي ، أصبح الاتحاد الأوروبي واقعًا سياسيًا . ومع استقلال إريتريا ، أُدمجت هونغ كونغ في الصين . وإلى متى سيتأخر دمج تايوان ؟ وإلى متى ستظل الكوريتان مقسمتين بخط عرض ؟ وإلى متى ستظل كيبيك جزءًا من كندا ؟

السياسة مضطربة والجغرافيا تتبع التيار . وأحيانًا تُصبح الجغرافيا نفسها أداة للهوية السياسية ، كما حدث عندما اعتمدت القوى الاستعمارية على رسم الخرائط لتقسيم "الأراضي المهجورة" : كان رسم بضعة أسطر من الحبر كافيًا لإضفاء الشرعية (وتبسيط) على غزوها الإقليمي ، على الرغم من أي هياكل اجتماعية وسياسية قائمة . ولم يكن إنشاء جيفرسون لمرسوم الشمال الغربي مختلفًا . تلك الخرائط التي رسمها الدبلوماسيون إن تحول الجنرالات إلى واقع سياسي حقيقة مهمة ومتكررة – حقيقة ، كما أشار مارك مونمونير، تُضفي سخرية غير مقصودة على القول المأثور بأن القلم أقوى من الأرض .

حتى عندما تكون الحدود ذات الصلة من النوع الحقيقي ، فقد تحدث تغييرات يجب أن تتعامل معها السياسة والجغرافيا على حد سواء . يتعرج نهر ريو غراندي من وقت لآخر ، تاركًا أجزاءً من الأراضي الأمريكية أو المكسيكية على الجانب الخطأ (مما يجعل من الضروري إبرام معاهدات دورية لتعديل الحدود الرسمية) . كل هذا أمرٌ جاد ، ولا يستطيع الفلاسفة أن يأملوا في قول كلمة واحدة . ومع ذلك ، فإن القضايا الفلسفية الكامنة وراء هذا العمل الجاد في الحياة عميقة بالفعل . لأن ما هو على المحك هو فهمنا لهوية وشروط استمرار الكيانات الجغرافية المفهومة على نطاق واسع . يُفترض أن حالة الأجسام الجغرافية الطبيعية ، كالأنهار والجبال ، تُشبه حالة الكيانات المادية العيانية الأخرى كالأحجار والأشجار والبشر وأكوام الرمال . ولكن ماذا عن الدول والمدن والتقسيمات العقارية ؟ ماذا عن كل تلك الكيانات الجغرافية المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بنوع من النشاط البشري المنظم منهجيًا ؟ كيف يُمكن فهم هويتها وشروط استمرارها ؟

يمكن القول إن إجابة هذا السؤال تنطوي على تشابك مُعقد بين المعطيات الأنثروبولوجية والسياسية . وهذه ، بدورها ، تنطوي على مجموعة متنوعة من العوامل المُعقدة المتعلقة بكيفية تفاعل وتناغم أفعال ونوايا الأفراد (وبكيفية اعتماد تلك الكيانات الجغرافية في وجودها على معتقدات وعادات سكانها ، كما تُؤكد توماسون في بحثها) . على سبيل المثال ، تُشدد كلمات روبرت إيمرسون المُقتبسة كثيرًا على البعد الذاتي للأمة كونها "مجموعة من الناس يشعرون بأنهم أمة" (أو مجموعة من الناس "يعدون أنفسهم أمة ، أو يتصرفون كما لو كانوا يشكلون واحدة" ، كما قال هيو سيتون واتسون) . وهذا لا يختلف كثيرًا عن الادعاء بأن هوية الكائن الحي وشروط استمراره – الشخص ، على سبيل المثال - تنطوي على أنواع مختلفة من المعطيات المتعلقة بالعوامل البيولوجية والنفسية ، بالإضافة إلى مجرد الاستمرارية المكانية-الزمانية . ولكن كما هو الحال مع الكائنات الحية ، فإن الاستمرارية المكانية-الزمانية بحد ذاتها مصدر حيرة عندما يتعلق الأمر بالكيانات الجغرافية .

لننظر إلى كندا ومكونها المُتمرد سياسيًا ، مقاطعة كيبيك . لنفترض أن "كندا*" تُشير إلى الجزء من كندا الذي لا يشمل كيبيك (أي الجزء الذي يضم جميع المقاطعات الكندية الأخرى) . اليوم ، كندا* جزءٌ لا يتجزأ من كندا . لكن لنفترض غدًا أن كيبيك أصبحت مستقلة . هل نقول حينها إن كندا* تُصبح مُتطابقة مع كندا ؟ هل نقول بدلًا من ذلك إن كندا* وكندا تبقيان مُختلفتين رغم أنهما... هل ينتهي بهما الأمر إلى احتلال المنطقة نفسها من الفضاء ؟ هل نقول إن كندا لن تنجو إطلاقًا من فقدان كيبيك ، مع أن اسم "كندا" ورثته كندا* (وليس كيبيك) نظرًا لتشابهها الكبير مع الأمة الأصلية؟

يشبه اللغز بالفعل معضلة مألوفة تُناقش غالبًا فيما يتعلق بظروف بقاء الكائنات الحية - كما حدث عندما قُطع ذيل القطة تيبلز في حادث . هل تنجو القطة من الحدث ؟ هل تصبح مطابقة لأحد أجزائها الأصلية ؟ هل تصبح متطابقة مكانيًا مع جزء أصلي ؟ لكن لاحظ التعقيد . في حالة تيبلز ، الحدث ذو الصلة هو حدث ينطوي على تغيير فيزيائي حقيقي . الذيل منفصل جسديًا عن باقي الجسم ، وهذا يؤثر على كل من القطة ككل (التي يُقال إنها فقدت أحد أجزائها) والجزء السليم من القطة الذي يصبح منسجمًا مع الكل (الذي لم يفقد أجزاءً ولكنه اكتسب حدودًا - قطعة جديدة من الحدود الحقيقية تحل محل الحدود القديمة الغامضة التي كانت تفصله عن الذيل) . إن حدوث هذا التغيير الجسدي هو ما يثير اللغز، والذي يجب تفسيره بحل فلسفي مناسب .

على النقيض من ذلك ، في الحالة (الافتراضية) لفقدان كندا لكيبيك ، لا يوجد أي تغيير جسدي على الإطلاق . إن هندسة الوضع غير متأثرة تمامًا بالانفصال السياسي ، حيث إن كيبيك بالطبع ليست منفصلة جسديًا عن المقاطعات المجاورة . لا يتم إنشاء حدود حقيقية تحل محل حدود حقيقية موجودة مسبقًا . لكن هذا ليس مجرد حالة من تغير كامبريدج يُنتج تغييرًا جوهريًا - لأن علاقات "فيات" الطوبولوجية ليست مجرد علاقات كامبريدج . يحدث الفصل بالكامل في عالم مفصلات "فيات" ، ولكنه فصل حقيقي مع ذلك . مرة أخرى ، هذا دليل على الطبيعة المزدوجة للكيانات الجغرافية ، التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمساحة التي تشغلها ، ولكنها أيضًا متأثرة بشدة بنشاط التصور البشري . في عالم الجغرافيا السياسية ، يرتبط "ماذا" و"أين" ارتباطًا وثيقًا ، ومع ذلك، فإن شروط الهوية والاستمرار لبعض الكيانات الجغرافية – أمة ، مقاطعة ، حي سكني - لا تتداخل تمامًا مع شروط الهوية والاستمرار في المناطق التي تشغلها . قصة أكثر تعقيدًا بكثير في محلها.

التحيزات الهندسية

ضع في الحسبان أيضًا حقيقة أن حدسنا - وحدس السياسيين الذين يتعاملون مباشرة مع هذه الأمور - يبدو أحيانًا مدفوعًا بعدد مجموعة من التحيزات الهندسية التي تستدعي دراسة منهجية . لو كانت كيبيك جزيرة منفصلة عن الجزء الرئيسي من كندا ، لكان الانفصال أسهل على الأرجح . على النقيض من ذلك ، لو كانت كيبيك في وسط كندا ، محاطة تمامًا بالمقاطعات الأخرى ، لكان الانفصال أكثر صعوبة . ستحصل كيبيك على الاستقلال ، ولكن على حساب عزلتها السياسية عن بقية العالم ؛ وستجد كندا نفسها مع إقليم غريب الشكل ، يتميز بحدود خارجية وأخرى داخلية . (هناك بعض هذه الأقاليم ، لكنها نادرة . حتى أن هناك إقليمًا به فتحتان - إيطاليا - على الرغم من أن الحجم النسبي للجيوب يُفترض أنه عامل يجب مراعاته). وبالمثل ، لو كانت كيبيك شريطًا من الأرض يفصل غرب كندا عن شرقها ، لكان انفصال كيبيك فعليًا بمثابة تقسيم هندسي للإقليم ، والذي بدوره قد يؤدي إلى انقسام كندا سياسيًا إلى دولتين مستقلتين . (من الصعب التماسك عندما يضطر المرء إلى المرور بالجمارك مرتين لتسليم بضائع وطنية.) وهذه مجرد أمثلة . ويبدو أن هناك حدسًا سائدًا آخر يتمثل في أن رسم الحدود الجغرافية يجب أن يؤدي إلى نوع من التبليط الكامل للعالم ، حيث تُخصص للأجسام الجغرافية مناطق فضائية مقابلة لتغطية الكرة الأرضية بطريقة مرتبة ومنتظمة طوبولوجيًا .

يمكننا في الواقع التمييز بين ثلاث حدس مترابطة هنا ، مفادها أن :
(أ) كل كيان جغرافي معترف به رسميًا يجب أن يكون له موقع مكاني؛
(ب) كل موقع مكاني يجب أن يُخصص لكيان جغرافي مماثل (يجب ألا تكون هناك بقع من الأرض الحرام)؛
(ج) لا يمكن لكيانين جغرافيين من النوع نفسه أن يكون لهما نفس الموقع - ولا حتى مواقع متداخلة .

تُمثل هذه الشروط جيدًا في الخرائط العادية من خلال اتفاقيات التلوين : كل منطقة على الخريطة لها لون فريد وكل لون هو لون منطقة فريدة . على سبيل المثال ، تُلبى جميع الشروط الثلاثة من خلال "التبليط الطبيعي" الناتج عن تقسيم سطح الأرض إلى يابسة (أخضر) وماء (أزرق). كما تُلبى أيضًا من خلال التبليط الناتج عن التقسيم السياسي لسطح الأرض إلى دول (بما في ذلك شبه دول مثل أنتاركتيكا) ، ومياه وطنية ، ومياه دولية. وتُلبى أيضًا من خلال تقسيم أراضي الدولة إلى مقاطعات ، ودوائر بريدية ، ودوائر انتخابية ، وما إلى ذلك .

ولكن ما هي قوة هذه الشروط ، وكيف تؤثر على تقييمنا للقضايا الجيوسياسية التي نوقشت أعلاه ؟ إسقاط (i)، على سبيل المثال ، من شأنه أن يُجيز كيانات جغرافية غير مكانية مثل فرسان القديس يوحنا العسكريين المستقلين ، أو ربما بولندا خلال عصر التقسيم . هل نريد أن نسمح بهذا الاحتمال ؟ أم نريد أن نحفظ الشرط (i) من خلال تزويد كل كيان إشكالي ببعض أو أكثر موقع أقل اختيارًا عشوائيًا - على سبيل المثال ، بتحديد موقع بولندا خلال حقبة التقسيم في المقر البريطاني للحكومة في المنفى ؟ يُعد التجانس الطوبولوجي شرطًا آخر يبدو أنه يلعب دورًا مهمًا في فهمنا البديهي لما يُعد كيانًا جغرافيًا "طبيعيًا" .

وكما جادل كاساتي في مساهمته ، يبدو أن الإدراك الجغرافي متحيز نحو ما يُسميه نموذج الجزيرة ، والذي بموجبه تكون الوحدة الجيوسياسية النموذجية محدودة طبيعيًا ومتصلة ذاتيًا إلى أقصى حد – جزيرة . ربما ينطبق هذا على جميع الكيانات ، بما في ذلك كائنات التجربة العادية : فقليل من الناس يجدون من الطبيعي تصور كائنات متصلة بأشياء أخرى ، أو تتكون من جزأين منفصلين مكانيًا أو أكثر. (يؤكد علماء النفس أن التحيز نحو أقصى قدر من الترابط يكون قويًا لدى الأطفال ، الذين ينحتون الأشياء وفقًا لذلك.) ولكن لماذا تُعد هذه الخاصية الطوبولوجية مهمة جدًا ؟ ولماذا تُعدّ هذه الأهمية جغرافيًا ؟ يفترض كاساتي أن الإجابة لا يمكن إيجادها حصريًا في الجوانب الرياضية لهذه الخاصية . فالترابط الأقصى ليس مجرد مفهوم ذي معنى مكاني ، بل هو أيضًا ذو دلالة سببية ، ويشير استعارة الجزيرة إلى السبب . فالجزر بسيطة هيكليًا ، ومتماسكة ، وموحدة ، ويسهل مراقبتها وحمايتها من المعتدين الخارجيين . أما الكيانات المتفرقة فهي ضعيفة ، ويصعب حكمها ، وعرضة للصراعات الداخلية والضغوط الخارجية.

ما يزال هناك الكثير مما يجب قوله حول التحديات الفلسفية الكامنة في عالم الخرائط الجغرافية المسطح . تُعد الجغرافيا مثيرة للاهتمام فلسفيًا نظرًا للتوازن الفريد بين البيانات والمتطلبات التجريبية ، من جهة ، والقضايا النظرية غير المستكشفة ، من جهة أخرى . لكن الغرض من هذا العدد من مجلة Topoi ليس تقديم صورة شاملة ، ولا أن يكون بمثابة نظرة عامة تمهيدية على "فلسفة الجغرافيا" ككل . بشكل أكثر تواضعًا ، أو ربما أكثر طموحًا ، الهدف هو إلقاء نظرة على هذا المجال البحثي المثير للاهتمام ، وبعض الاتجاهات التي يُحتمل أن تُسفر عن تطورات مثمرة . لقد استعرضتُ بإيجاز بعض الأمثلة هنا .